أمن عصر العقل الى عصر القلب ؟

ام من عصر العقل الى عصر المعدة ... ؟

مشكلة الفقر والغنى بين العلم والقانون والايمان

يزعمون أنا في عصر العلم وفي دهر القانون ويريدون أن يسلبوا الناسَ إيمانَهم كأن الإيمان هو مشكلة الانسانية مع أنه لاحلَّ لمشكلتها إلا به. إن مسألة الغنى والفقر وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانونُ إذ هي من مواد القضاء والقدر في إنشاء الآلام والاحزان وأضدادها التي تُقابلها، وما دام فوق الانسانية من السماء قوةٌ لا تُحدُّ، وتحت الانسانية من القبر هُوّةٌ لا تُسدُّ، فلا نظامَ الاّ على تصريف النفس أمراً ونهياً وتأويل الحياة معنًى وغاية، فان لم يكن الشأنُ في ذلك مقرراً في الغريزة على جهة الإيمان فلن يكون العلم والقانونُ على ظاهر النفس الاّ ثورةً بما في باطنها، ولن يبرح الناسُ على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منهُ وهو مضطر اليه أو كالمضطرِّ اليه وهو هاربٌ منهُ، وكلٌّ من كلٍّ في معنى من معاني النفس لا انسانيةَ فيه

ما زاد العلماء على أن خلقوا في ساعدَي الحياة هذه العضلةَ البخاريةَ وذلك العصب الكهربائيَّ فمن لم يستطع أن يتوقّى ضربة الحياة المدنية بعُدّةٍ من قوة وعتادٍ من المال طاحتْ به فدكّتهُ دكَّ الخسف ووضعتهُ من الناس موضع الحبّة من الرّحى الدائرة فما بينهُ وبين أن ينهار موضعٌ يتمسك عليه، وانما هذا الموضع هو ايمان المؤمن إذ يعطفُ على الضعفاء أو يُحسِنُ أو يبرُّ بما كُتب عليه أن يرقَّ لهم من ذات نفسه ويتحنّى ويتوجع

ومتى كان العلم والدينُ يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة في مادتها وإنسانيتها لم تجرِ الانسانية الاّ على ناموس بقاء الاصلح في الجهتين، فاذا تخلّى بها العلمُ وحده فلن تجري أبداً الاّ على ناموس بقاء الأصلح في ظاهرها لايجاد الأفسد في باطنها

لن يُفلحَ الانسانُ للحياة الطيبة — ما دام بهذا التركيب الذي لن يتغير — الاّ اذا وازنَ بين بيئته التي هو يوجّهها وبين طباعه التي هي توجّههُ، فقيّد أشياء في قيودها وأطلق أشياء من قيودها وجعل في مُتبوَّأ نفسه حدّاً بحرية وديناً بعلم. بيدَ أن طغيان

العلم في هذه المدنية قد مَرَّدَ حتى طباع (١) الانسان وشمائله في كل موضع من الحياة لا تكاثفهُ فيه قوة الدين فاذا هو زين الشهوات واذا الشهوات تُطوِّعُ المغامرة واذا المغامرةُ تجلب المنازعة واذا المنازعة تدفع الى الحرص واذا الحرصُ يتصرفُ بالحيلة واذا الحيلةُ تهلك التقوى وكان في تقوى الانسان إيمانهُ وكان في إيمانه رحمتهُ وكان في رحمته الاثيرُ الانسانيُّ الذي تعيش فيه الروح . وعلى ذلك يقع في الانسان من النقص بمقدار ما يزيد لهُ العلم ؛ فاذا هو منحدرٌ الى السقوط مقبلٌ على الخلق راجع الى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبهُ منها

أو لا يرى الناسُ أن تفوُّق امة على أمة لم يعد في هذه المدنية الاَّ معنى من معاني القدرة على أكلها . . . . . ؟

ومضى العلم على شأنه ذلك حتى جعل الانسان آلةً من آلاته التي تُعَمَّر بها الدنيا فأصبح من لا إيمان لهُ يتسقّف خسائسهُ (٢) لا يدري أين يؤمُّ منها وأين يقف ، فلا يتسفل بقوة انسان ولا بضراوة وحش ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها . . . . حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلاَّ هي مفتنَّة في تركيب على نسق الامور المخترعة ، وكأن الآلات الصماء ما زادت انسانها شيئاً الاَّ أن قالت لهُ كن أعمى . . . . وكأن المدنية الملحدة ما عدت أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بأناقة وتمدن . . . .

نسي الناسُ الايمانَ أو انسلخوا منهُ فاذا أيديهم تموجُ بأسباب التضاؤل (٣) تُمسكها ولا تضبطُها وما كان الايمان الصحيحُ الا التقوى (٤) ولا كانت هذه التقوى إلاَّ عملاً من أعمال الارادة غايتهُ إيجادُ الغرائز العليا في الانسان بالاسلوب الذي لا تُخلق الغريزةُ السليمةُ في النفس الاَّ به وعلى النحو الذي لا تصلحُ في الحياة الاَّ عليه أظهرُ آثار الايمان تحديدُ الغايات الانسانية وتنسيقها والملاءمةُ بينها ، فان اطلاقَ

(١) أي مرن عليها واستمر وبلغ بها الغاية التي تخرجها من جملة ما عليه الطبع الانساني الكريم

(٢) يتخبط فيها على غير هدى

(٣) ماجت اليد بالشيء اذا اضطربت به كأن أيديهم لا تضبط أسباب التضاؤل من ضعفها عنها

(٤) الاسلام كله في كلمة التقوى كما بيناه مفصلاً في كتابنا (اعجاز القرآن) فانظره . وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد قال (هكسلي) قسيم داروين الشهير — : «ان الدين هو الملاك للمثل الأعلى من الاخلاق ومحبة العمل في تحقيقه في الحياة» . وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر، وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء وكل ما جاء وما سيجيء هو من معاني (التقوى) في الاسلام لا تضيق الكلمة عن شيء منه

الغاية لكل انسان على شأنه وسبيله كيف دَرّت معيشته (١) وكيف دارت اهواؤه — يجعل طُرُق الناس متداخلة متعادية يقطع بعضُها على بعض ويقوم سبيلٌ في وجه سبيل ، فلا تُحل عقدةٌ الاّ من حيث تَنفرض أختُها ولا يخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة الاّ قاطعاً متقطعاً معاً ، وأنت اذا بحثتَ عن الوحدة التي تحاول ضمّ الانسانية المتنافرة وردّها الى مرجع واحد لم تجدها في غير ايمان المؤمنين : فهو أبداً يقابل في كل نفس ما تطغى به الحياة على اهلها ، ولا عمل له الاّ ان يحذف الزيادات الضارّة بالانسان من بيئته وبالبيئة من انسانها وهو بهذا حائلٌ في كل مجتمع بين ان تنقلب أسبابُ السمو العقلي فتعودَ من اسباب الدناءة والخسة .

وانما محلُّ الايمان من اهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم فهو الامرُ والنهيُ بلغة الدم والعصب ، وهذه الغايات التي تتألف من أجلها الحكومات كأمن الناس ونظامهم وسعادتهم هي انفسها محكومةٌ بمسائل تأتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم وسايئهم ومصالحهم ، فان لم تكن في النفوس من الدين اصولٌ تأمر وتحكم ، وفي الطباع من اليقين أصولٌ تستجيبُ وتخضعُ ، رجعت الحكومةُ في الناس أداةً مسلطةً لا تغني كبير غناء في الخير والشر . اذ يحتاج الخير ابداً الى قوتها تحميه ويحتال الشر أبداً على قوتها تستنقذهُ ، ومتى لم يكن الخيرُ الاّ بالقوة فاحتياجُهُ اليها شر . ومتى لم يكفّ الشر عن القوة فاحتيالهُ عليها شر مثلهُ ، فاذا تَضَعْضَعَتْ من الاديان هذه الدعائمُ الراسيةُ وفرَطَ من الانسانية هذا الفارطُ الذي ليس في الارض كِفَاءٌ منهُ — لم تجد حسنةً في حكومة من الحكومات الاّ معها من طبيعتها سيئةٌ ، ولم تجد سيئةً الاّ هي سيئتان ، فلن تكون الحياةُ حينئذٍ الاّ تنيداً أشدَّ التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة .

والغنيُّ القادرُ على مُتَعِ الحياة ولذّاتها هو دائماً في فلسفة العاجز قادرٌ بلا قدرة ، كما ان الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجزٌ بلا عجز ، ولا أدلّ على ذلك من تعبيرهم عن معناهُ بالكلمة التي تُشبهُ ان تكون هي ايضاً معنًى بلا معنًى . . . . . وهي الحظ ! فلا بد للناس من الحدود التي تجي بين كل ضدين من أحوال الانسانية جداراً يعطفُ نفساً على نفس بالرحمة ، ويردُّ قوة عن قوة بالصبر ، ويكفُّ عادية عن عادية بالتقوى ، ويحقق عواملَ التوازن بين اسباب الاضطراب في الجماعات المتصادمة ليُقِرَّ كلَّ

(١) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو

مُضطربٍ في حيّزٍ إن لم يُمسكهُ ثبتَ فيهِ لم يُفلتهُ فيعدُو على سواهُ

فاذا جمحت المدنيةُ على هدم هذه الحدود وركّبت قوةَ الايجاب في طبيعة الحياة بغير قوة قلبيةٍ سلبيةٍ من الايمان في طبيعة النفس، كشفت للانسان عيوبَهُ ببلاغةٍ من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيهِ كما تقول للص: إنك لتسرق وستصبحُ غنيّاً تمرُّ يدك في الذهب تُنفق وتستمتعُ على ما تشتهي .... فما يراك قلت لهُ لا تكن لصّاً وتعفّف بل قلتَ لهُ كن غنيّاً واستمتع. ويومئذٍ يعبرُ البؤسُ ويشعرُ الفقر كما نرى لعهدنا في الامم التي فشا الالحاد فيها، فليس من بعدُ إلاّ أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء في سكب الدمع إلى صورتهِ الحمراء في سفك الدم وكان سؤالاً فيعودُ اغتصاباً وكان الأسفلَ فيرجعُ الأعلى وكان يَفرضهُ الحقُّ فاذا هو الحقُّ نفسهُ. والله لكأن المسكين في هذه المدنية هو الجزء الاثيمُ الذي طردهُ الغنيُّ من نفسهِ وتبرأ منهُ وأمات ما بينهُ وبينه، فاذا هما اعترضا في مذهب من مذاهب الحياة، نفرَ الغنيُّ كما يرى قبره يدنو منهُ وأطبق عليهِ البائس بمعاني النقمة واللعنة يقول لهُ ما أنا الاّ لؤمك أنت

إن من الشجر شجرةً تنبت في القَفر تمتصُّ ماءها من بين رملٍ وحجرٍ وتمصُّ غذاءها من لؤم الجدب، فاذا حان أن يُزْهِرَ عودُها شوّكَ فلا يكون في عُقَدهِ ونَبْرهِ(١) الاّ شوكٌ، فاذا ازدرعوها في الخصب وخضّلها الماء(٢) وساغت لها الطبيعة ثم حان أن يزهرَ عودُها تلمسهُ كَرَمُ الارض(٣) فاذا في موضع كل شوكةٍ زهرةٌ كأنها كلمة الحمد. وكذلك مَثَلُ الفقير بين الملحد والمؤمن

تُرَى أيخرجُ الانسان في هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب، أم هو منحدرٌ من عصر عقلهِ الى عصر معدتهِ ....؟

وكان على هذه الارض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شبهُ الفقر، ومساكينُ مؤمنونَ لهم من كرم الصبر شبه الغنى، فهل تنقلب المدنيةُ من الغنى المحض والفقر المحض الى مادة تخلق التخمَ الحيّ وأخرى لا تخلق لهُ الاّ الظُفر الحيّ ...؟

وكان اختراع الانسان في المادة الجامدة، أفتُراهُ يجيء يومٌ على الناس يكون أعظم اختراع فيهِ للانسان الاخير ان يعيدَ الى الارض إنسانها الاول الكريم؟

مصطفى صادق الرافعي

(١) النبر المتورم الذي في العود (٢) بله الماء (٣) نمته وأدمجته وأزالت شوكه

نظرة الى مدينة المستقبل

أليس في هذه المباني فنٌّ أكثر انطباقاً على حضارة العصر من فنّ القرون الوسطى !

مقتطف يناير ١٩٢٩

امام الصفحة ١٩